ثنائية النور والنار

في شعر سعدي يوسف

سعيدي المولودي

يستقطب عنصر" النار-النور" مدارات قصيدة سعدي يوسف على نحو مغاير، ينأى أو يقترب من إعطائها وجها لاستدرار طاقاته وامتلاك تمثلاته، بما يجسده أو يستشيره من أواصر خفية أو بارزة تؤشر إلى مظاهر ومراسيم الكينونة الأولى وخلفياتها المتعددة. ولذلك ينفذ شكل هذا العنصر إلى الصورة من خلال ما يحمله من قيم دلالية أسطورية رمزية، أو سحرية متراكمة، ليمنحها " صيغة وجود"، أو بناء خاص يقوم على ضرورات وجدانية تفرض ظلالها على حركة الأشياء وعلاقاتها، وتستنفر أغوار الذاكرة من أعماق التاريخ والكون لتشهر تفاصيلها المنسية، الذابلة، ومن ثمة يلعب دوره الفاعل في استكمال دورة العناصر الأخرى وسريانها في عروق الدلالة ومجاريها المتشعبة.

ونحن عمليا في غنى عن الإشارة هنا إلى مظهر "المركزية"، أو الدور المتفرد لهذا العنصر ورموزه في تاريخ الحضارات الإنسانية بوجه عام، وهو ما حمل الفكر الفلسفي القديم على اعتباره المادة التكوينية الأولى التي تجسد "الحركة والتغير"، واعتبار العالم كله ناشئا عن كتلة النار، ومن ثمة لم يأل الإنسان جهدا منذ القديم في الصراع من أجل الاقتراب من ملكوته، والاتحاد بمداه أو الوقوف على خصائصه وسماته، وشكل هذا الهاجس أرضية ثابتة لملاحقة ومواجهة ظواهره، إما عن طريق التقديس، حيث لجأ الإنسان قديما إلى عبادة النار أو النور لأنها تجسد في منظوره جوهر الوجود، مما كان يتمثل أبعاده أو يراه أو يواجهه، وكان لرموزها كذلك خاصة الشمس أو القمر أو النجوم تلك القداسة، وذلك الجلال والإكبار الذي نسجهما عقل الإنسان حول الكون وثوابته من جراء الانبهار بتقلباته، وكانت العبادة مظهرا لمحاولات الاقتراب وإدراك العالم الموضوعي، واستدراجه نحو رغبة الامتلاك واستيعاب حركة موجوداته وإدراك صيرورتها واكتشاف علائقها، بما كان يسمح للإنسان القديم ذاته أن يلبس الكون ويخوض أو يسهم في تحولاته، ليملأ عمقه في ترابطات لا نهائية، تجعل واقعه أكثر قابلية للفهم. ولربما تعكس تلك المظاهر بمعنى ما رواسب الوحدة الأسطورية التي تجمع طاقات الإنسان

بطاقات الكون، وتوازن بين تجسدا تهما. ولا ريب أن الفكر الديني عبر مراحل تطوره وجه العلاقات بين الإنسان ومحيطه توجيها مؤسسا على مظاهره وظواهره، والقصص الأسطوري في أغلب الحضارات القديمة إذ يعتمد مثلا رمزية الماء ومركزيته التي تكرس بداءة الحياة وإرادة الخلق، في الوقت الذي يجسد فيه عامل الفناء أو الدمار، يعتمد بالقوة ذاتها النار، فقد كان ينظر إليها باعتبارها أصلا للكون، أو صورة ساطعة لبعض تجلياته، لتصبح فيما بعد جزءا من القيم الدينية، وتتحول إلى عامل "تطهير"و"جزاء" أو" عقابا" في العالم الآخر لمقترفي الخطايا، وهذا البعد عمليا هو حصيلة طبيعية لتفاعلات بعض عناصر الرؤية المزدوجة التي تنهض على تمثل مبدأ الصراع الأبدي بين النور والظلمة، الخير والشر وهكذا. وهو ما يؤشر للبعد الراسخ لتمثلات النار في ذاكرة الشعوب والحضارات السحيقة، وعلى جذورها الضاربة في سر الكون وحياة كائناته، هكذا تتعاظم صورتها كمادة أولية لتحافظ مع مرور الوقت على قدسيتها وطقوس الاعتبار التي توحي بالرهبة والخوف، وهذا المنحى باستمرار كان يؤازر الدور الفعال الذي رسخته عملية اكتشاف النار وأثرها في تطوير أركان الحضارة الإنسانية. ومن ثمة فإن ظلال مداها الأسطوري لا تتلاشى وإنما تتجدد، وتتكرر، وتتلون عبر صيرورة الوجود وعناصره، فبقدر ما تثير خوف الإنسان وذهوله تثير شهوته أو رغبته، وستظل موئلا يمثل نقطة انعطاف في تاريخ الإنسان، من حيث أنها تهبه الحياة والدفء، وتغمره بنعيمها وآلامها، وتملأه بطاقة من الحيوية الاستثنائية يهفو عبرها إلى مصارعة الوجود وظواهره، مهما خسر كثيرا من استشرافا ته، أو خاب في كثير من خطواته، لذلك لا غرو أن تفرض النار حضورها الدائم، وحياتها بإلحاح في كل تجسدات العالم، وتكتسب طبيعة ثابتة ليست منه بقدر ماهي متأصلة فيه، فهي ما يحول الكثير من عناصره، ويكسب وجودها قيمة مادية أو معنوية، يؤسس الإنسان على ضوئها قارة إدراكه الكلي لطبيعة العلاقات المثيرة، الزاخرة التي تشده إلى كيان العالم.."وهكذا هي النار ذات امتياز يمكن أن تفسر كل شيء. وإذا كان كل ما يتغير بطيئا تفسره الحياة، فإن كل ما يتغير سريعا تفسره النار". (1) ولأن كل شيء في الوجود في فيض مستمر، فإن النار ضالعة في كل هذا الفيض، تستقصي حركة وطبائع الأشياء، وتغرقها في دوامة التقلب والتغير وتأخذ منها بقدر ما تعطيها.

وينشأ الخيط الفاصل بين النار والنور من نقطة تماس رفيعة، لا تعكس أي مظهر انفصام بينهما بالقدر الذي تكثف عناصر تماثلهما أو انطباقهما الكلي، فالنار على الأقل"وجودان"، نلمس أبعاد الوجود الأول كلما اقتربنا منها أو لمسناها وهو ما تتجمع خيوطه ومعالمه في بؤرة "ألم الاحتراق"،

وهذا هو المظهر الرهيب فيها، الذي يخلخل مستوي تكيفها الطبيعي أو الداخلي مع الإنسان، ولهذا الاحتراق بعده الحقيقي (المادي) والمجازي الذي ينتقل به من سياق خاص إلى سياق عام، حيث يومئ مثلا إلى حالات عاطفية ووجدانية خاصة، تحقق تشاكلها الطبيعي المحاكي والموازي للاحتراق الفعلي، وما ينجم عنه من مضاعفات أو آثار مفاجئة طارئة تأخذ مظهرها من خلال استشعار الألم وانكسار نظام التحمل الداخلي لدى الأشياء أو الإنسان، وهذا المظهر هو ما استثمره الفكر الديني بطبيعة الحال في تشييد ذاكرة الاقتصاص. ونسج عوالم الترهيب حيث النار هي العنصر الأساسي للعذاب. وأداة تأديب وتهذيب وإصلاح أهل الخطايا والعصيان. أما الوجود الثاني فيأخذ مظهر "النور" وهو المظهر الايجابي فيها، "النار الأنقى" على حد تعبير" باشلار". (2)ويجسد الجانب أو العامل التطهيري فيها، حيث يدحر أو يقهر الظل أو الظلمة، وتتكثف في عوده دلالات شتى لها وشائج بكل ما يمت إلى الوضوح أو السطوع أو الاستنارة أو الإشراق، وسوى ذلك مما يضفي على دور النار لونا جديدا يواجه الكون، من زواية إضاءة خوافيه واختراق حجبه، "فالنور هو الذي يبين الأشياء ويري الإبصار حقيقتها" (3) والوجدان معا لا ينفصلان، وكلاهما يلقي بأثقاله على الآخر لينطلق في أي اتجاه.

وفي هذا السياق يميز" غاستون باشلار"، بين نارين: داخلية وخارجية، (4) تتمثل نار الداخل في مزيج من الأحاسيس الفياضة التي تتصاعد من دواخل الشاعر: اللوعة، حرقة الحزن... وكل المشاعر أو الانفعالات المتوترة التي تعكس أبعاد القلق الوجودي، أو المعاناة لإثبات الكينونة التاريخية الخاصة أو العامة، وترمز بوجه عام إلى فضاءات الأهواء، بناء على أواصر المطابقة الواردة بين "النار" و"القلب"(5)، أما الخارجية فلها ظهورات وتجليات شتى، وتحققات متباينة، تتفاوت بين السلب والإيجاب. ومن جانب آخر يؤكد باشلاران النار وحدها تحتوي أو تمتلك من بين جميع الظاهرات قابلية القيمتين المتضادتين: الخير والشر "تتألق في الفردوس وتستعر في الجحيم: عذوبة وعذاب" (6). هكذا تتجمع كل هذه الأبعاد لتحقق ماهية النار، وسلطتها وموقعها أو هويتها الحضارية في بحر الرموز المتوارية في ذاكرة الإنسان، وتنفذ اللغة إلى التماس تضاريسها الحقيقية التي تهيئ صفاءها الأولي وتفتح مجراها للحضور على نحو أصيل.

وفي تجربة سعدي يوسف تتجسد النار -النور عبر مستويات متعددة تتوزعها سياقات وت أويلات متباينة تتصل اتصالا وثيقا بمجرى الرؤية العامة وتحولاتها، أو المواقف المتولدة عنها وتوجه عمليات استثمار فاعلية الرموز وتصريف أبعادها، ومن الجائز القول إن بروزات" النار –النور" في قصيدة سعدي يوسف تتقاطع باستمرار مع حركة وقائعها وكائناتها ولغاتها باعتبارها العنصر الدائم

الأولي، وتتنامى تشكلاتها ونطاق توظيفاتها مع تطور حركتها في ما يشبه احتكاما إلى دلالات متقاربة أو متباعدة تمنح القصيدة بهاءها السحري الأسطوري الخاص الذي يحتويها، ويستدعي حضورها أو سلطانها كفعل أو رمز حي يحيا في الداخل محتميا بدفئه. يتراءى من خلاله، ويلح على أنه جزء من حركة ت تحولاته الدلالية، وقد كانت الظلال الرومانسية في خضم البدايات تحفر في اتجاه إدماج دلالات النار في علاقات ومعابر رمزية أقرب إلى امتلاك أبعادها الخاصة، أي احتمال واعتماد مفهوم النار كقوة أو فعل داخلي تتكتل فيها مشاعر المعاناة والألم والعذاب والحنين والاحتراق والولاء والحب العاصف، واستكشاف مظاهرها وعناصرها ضمن فضاءات توتر واقعي وتاريخي وثقافي يوجه الدلالة نحو المزج بين النار والحب واللوعة، الفورة والثورة والفوضى ومظاهر التقلب والتغير، وهي مرحلة تتصل بالضرورة بسياق إدراك الذات كفاعلية، وبوصفها امتدادا للرموز الطبيعية وتجلياتها، وباعتبارها "كونا" يؤسس تاريخه ضمن استعارة عناصر الخلق الأولى، ومواجهة ثبات العالم والتاريخ، لذلك فإن الاحتماء بها يغرق أحيانا في متاهات اللوعة المفرطة التي توقظ هدير الحب والعشق.

والنار تجتاح صدري دون مطفئة وبنت جارتنا تجتاحها النار(7)

وهذه اللوعة -النار، تتحول باستمرار إلى دفق جارف مأهول بالحنين والشوق والتعلق بالأرض الأولى، إذ تتحول ذكراها إلى نار تحفر لهيبها في كل القلب، وتصبح خطوات العمر كلها نارا تتأجج وتتسع من أجل كل العراق، الذي تتجمع تضاريسه في جذوة النار:

بالأمس لم أحفر علي قلبي سوى نار العراق
واليوم جئت إليك يا صوفيا العريقة
نحمان في قلبي : هواك، وكل نيران العراق (8)

وستظل هذه النار المستعرة المشبعة بالظلال والإيحاءات اختيارا صادقا وواقعا حيا يوخز الذاكرة على حافة السنين، ويغمر متاهات الرحيل الدائم، الذي لا يتمثل إلا رحلة اختراق وفناء وافتداء لأرض العراق ورموزها الخالدة:

رحلتي في الفرات
رحلتي في احتراقي
رحلتي في العراق.. (9)

وبقدر ما تتسع هوادة الرحيل، والبعاد تترامى قارات النسيان، ويتولد الاحتراق طقسا متجددا يؤوي مهاوي الذاكرة. ويرسم صورة باهتة للوطن -العراق الذي يخطو على البعد وتتراءى خطواته كأنما هي نار، وتبدو المنائر النابتة في البعد تطوي المسافات، لتعانق الخطو وتقترب من القبض، تجري لمستقر لا يقر على هوى، ينساب الخطو في مدى الارتحالات الرهيبة وتقترب رائحة الوطن من اللمس لا هبة أو لاهثة كالنار:

تناديني المنائر وهي تنبت من بعيد مثل غابات

النخل المثقل الأعذاق بالذهب

ويتبعني العراق خطاه من ماء ومن لهب... (10)

هكذا يتحول الوطن إلى خط نار تكسو فضاء الذكرى وتملأ سعة العمر، وتصير صورته الماثلة محمولة على تفاعلات توتر تنهل من ذخائر الذات والذكرى الهاربة وتقتات من إرهاصات وجودها المتقلب وتلتهب هذه الإحساسات المشوبة بالاغتراب والحنين والوله والتعلق بالجذور، لتغذي نزوعا نحو "الخلاص"، أو الفكاك من أسرها، ولا يتم هذا الخلاص بدوره إلا عن طريق الفناء بالنار ذاتها، التي كانت العلة، وتكون الدواء بما هي الداء، لذلك ينساق الشاعر وراء صيغة أو رغبة "تطهير" تفيض حقيقتها على الكون، ولحظات الوجود، ويصبح معها الموت ميلادا جديدا وأغنية خالدة، وبريقا مضاعفا في سمائها، يملأها نارا ويحصن خيط الحياة الذي لا ينقطع في مداها:

نحن كنا أربعة

ورجعنا أربعة

غير أني عدت كالنائم في الماء طويلا

شاحبا يأكلني شوق إلى نار الحريق (11)

هذا الإحساس قد يتضاعف بالقدر الذي بتلون، ويحمل بذور أو عناصر توتر خانق يولد في أية لحظة، ويزرع الدهشة أو يغري بالانقلاب أو التغيير أو المفارقة ليصبح الاحتراق سيرة تضمن سيرة ايقاعات التجاوز أو الهوية المنشودة، وفي الوقت ذاته طقس فداء، يفتح هديره على رجفة الميلاد الدائم المتجدد:

يا قلق الإنسان

يا صوته الراجف في القضبان

هبني احتراقا منك. هبني رجفة الإنسان (12)

وفاعلية التطهير أو الاحتراق لا تبيد الرغبة المحترقة أو تفنيها فناء. وإنما تمضي بها إلى ذاتها، وتشرعها لمواجهة عنفها، فالنار لا تلد غير النار، وتهيئ لمرحلة صفاء أعرق يترع القناع ويحيل الشوائب إلى رماد أو سماد يحفر لميلاد كينونة جديدة، ما تفتأ تبني ثأرها أو نارها، كل الأضداد تلد بعضها البعض، ولا يقوم الانطفاء إلا ليدبر موجة الاشتعال:

أومن أن النار قد تحرق العار الذي في وقد تخبو
أو من أن البغض
أعظم ما يمنحه الحب (13)

فالنار إذ تغسل التاريخ أو الذات من أدرانهما، ومن ظلال العار أو الانكسار، تقتات من ذاتها وتصقل مرآتها صورة وواجهة لميلاد جديد، فأجمل ما يمكن أن يمنحه الحب هو البغض، وأعظم ما يمكن أن تلده النار التهاب دافق بالحيوية والعطاء حيث تزهر شجرة حلم واعد ولافح، هكذا يزرع سعدي أسئلته في احتراق ملكوت الكون، ويسوق ايقاعات الحنين الدائم نحو الاشتغال والتكاثر والانتشار والتناسل، فالنار التي تأكل الجذور، هي ما تختزن طاقة الاندفاع والديمومة، وهي التي ترعى البذرة لتكون الشجرة، ثم غابة، ثم عالما:

قالت في الحريق الشجرة
هذه النار التي امتدت إلى البذرة
هل تنبت فيها الشجرة؟ (14)

ومن صلب هذه الجدليات السحرية، الكثيفة، ينخرط سعدي في مزاوجات فريدة بين عنصري الماء والنار، ويبني تعالقهما- وحدتهما في نسق تجاور يحقق تلاحمهما الأصيل الثاوي في طقوس وشارات الخلق الأولى، إذ يتعانقان ويمتزجان ويسند أحدهما الآخر ضمن ما يؤشران إليه من تداعيات، أو إيحاءات، أو أفعال أو انفعالات، لذلك يتبادلان وظائفهما ويتنازعان الوجود في مجرى تناسق وتناغم، يرتكز على مبدأ تحقيق نقطة وصل أو مساحة التقاء بينهما، مما يمكن أن يحيل إليه ذلك من صورة أولى لالتقائهما فالنار هي "المبدأ المذكر الذي يكسب المادة المؤنثة شكلها وهذه المادة المؤنثة هي الماء". (15) ومن هذه المجاورات:

...يهبط الصوت على أسماعنا، يحرقنا كالماء (16)

* * *

...ثم يقطر بي

مثل نار الينابيع (17)

* * *

وليحترق ماء السبيل (18)

* * *

...مثل شلال من النيران (19)

وهذه المحاورات تغترف من محيط التضاد أو الاختلاف لتعيد نسج تاريخ علاقات ذات امتدادات عميقة، تتعقب معالم التوحد أو تداخلات التكوين الأولى حيث كل الأشياء، قادرة على التلاحم والتصادم والانصهار والتوالد والانتشار، وهو ما يبين حجم التقابلات التي يستعين بها سعدي على مواجهة تناقضات الواقع أو الاحتماء بها كذلك.

ضمن هذا التجلي يحضر النور "النار الأنقى) ليغطي مساحات مفتوحة توجه نظام وسياق استثمار مقومات وتوالدات عنصر النار ورمزيته بما يمكن أن يجسده من تمثلات أو امتدادات عبر تضاريس التجربة، ويحتل النور موقعه كبعد داخلي مفتوح على أقانيم الذات، حيث يقودنا إلى دلالات مفتوحة ترسم فضاءات الأمل، والتجدد والصفاء والرغبة في الحياة، ومظاهر الأمان والشعور بالثقة والاطمئنان، وهكذا يصبح فعل الأعماق وزاد القلب، ويملأ دروب الحياة وهجا، ويسري في تفاصيلها واحتمالاتها ورمزا لاندفاعاتها.

أسرع...

ففي الآفاق تلتمع المدينة

والنور في قلبي وعيناي انتظار

الريح تصرخ والبحار.

...

أسرع...

فعندي موعد أنا والحياة (20)

هذا الحفر في جهة المسافات والابتهالات المشدودة لحبل الرغبة في عناق الحياة، ينهض علي شارات النور الغامر لدارات القلب. ويوشي المدينة، ويهادن الريح وصخب البحار، ويلون الأغاني المدوية في الآفاق البعيدة. وهو ما يجسد عمق الإثارة، والاقتراب من الحياة التي تسكن قارة الانتظار. وتجذر النور في أرضية الأعماق بهذه الصورة، يخرج به أحيانا إلى التلبس بظلال رومانسية عابرة تسمو

به لأن يكون فعل وجود وخلق مهيأ للعطاء، فحين يخاطب الشاعر حبيبته الموعودة ينفث فيها من نوره الذي يستله من الأعماق، ومن عراقتها:

إني وهبتك دفء آفاقي والنور من أعماق أعماقي (21)

وهالة النور إذ ترتد إلى الأعماق تستحيل في أرجائها إلى سلالة من احتمالات دلالية طارئة تتعانق فيها إرادة الخلق أو الفعل الذي يهب الحياة مغزاها، ويروي بذورها، وتتلون في إشارات بألوان زاهية تمنحه قدره الإشعاعي وبهاءه الذي يوشي مظاهر الحياة وأبعادها:

والنور يخضب في أحناء ضيعتها كرم السفوح إذ ما هل إصباح (22)

وعلى هذا المستوى يمنحه الشاعر كينونته، ويغني دلالته من خلال مظاهر التشخيص أو الأنسنة حيث النور يقطر أو يزهر أو يطعم -وهكذا إضافة إلى فاعلية التطهير التي ترسم هويته وحقيقته الأصيلة كرمز للطهارة:

يا غابة أعشابها حمراء يادنيا دفيئة

الشمس تشرق مرة أخرى عليك

والنور يغسل كل شيء (23)

ومن خلال بنية التضاد يكثف سعدي من دور فاعلية النور باتجاه تأسيس جدلية تتحرك فيها دلالته بتزاوج مع العتمة أو الظلمة، وتفصح عن انشغالاته الحركية في علاقاته أو توتراته التي تشده إلي ضده. إن البداية -الخلق دائما تنشأ من صراع الأضداد وتفاعلها أو تكاملها اللامرئي، والبدرة الخطوة الأولى تولد وتنشأ على أرضية هذا الصراع اللامتناهي.

هو النور في الظلمة (24)

هكذا يقرأ سعدي سيرة الوجود ويمضي إلى معناه العميق بحثا عن انسجام خفي وأسطوري يؤازر على استيعاب واستقبال وتمثل تناقضاته وخط متغيراته، ويرسخ عادات الإيمان بضرورة تخطيها ومواجهة انعكاساتها عبر نقاط تأصيل تلك المتغيرات واستكشاف تحولاتها. ومن هنا أحيانا تتسلح القصيدة بمنطق الدوران حول البؤرة والمزاوجات التي تمضي في اتجاه تفجير أوعية التناقض والتنافر بين الأضداد مما يضفي عليها بعدا تشكيليا، تتراوح فيه بين الخفاء والتجلي والنور والعتمة وطاقة امتلاك حركة الأشياء والكائنات في صيرورتها وخيط إنجازاتها والعلائق التي توجهها:

غسق على الأسوار

والبرج الوحيد أسير ليل الجند
والطرقات خافية
يكاد الحبس وهو يموه الجدران يمسى النور
في عتمات هذا التيه
يمسي وحده النور المخالف
أين مصباح النحاس الذي يدور فيه النور. (25)

فالصورة هنا تترصد حياة الليل منذ خطواته الأولى تمعن في ملاحقة وجوده، كيف يغمر بظلاله قارة المدينة: الأسوار والبرج الوحيد والطرقات الخافية. لكن هذا الواقع لا يحيا أو يتنامى إلا من خلال ظلال بريق الجبس وهو يوشي الجدران ليكون النور أو اللون المضاد المقاوم لعتمات مسالك المدينة التي تتحول إلى تيه بلا نهايات تمتد امتداد أجنحة الغسق التي تلتف بحافات المدينة. وحتما فإن هذا الواقع من الظلمة وهذا الحضور الفاعل لنور خاطف متدل يجاهد أن يبعث الحياة في غمارها ويرعى هاجس الأمل في برية المدينة. يثير التساؤل عن أبعاد هذا الذعر الذي يضفيه الليل على كيان المدينة وعن المصابيح النحاسية التي تتلألأ وتشع أنوارها الخضراء والزرقاء التي تركض وراء المدينة السحرية الساطعة كشمس النحاس التي تحتوي الأرض كلها.

في قصيدة "الليل" (26) تتواتر هذه الصيغة من الجدل -الصراع بين النور والظلمة وبين الصبح والليل في تماس باهر يتبادلان معا دورهما في الخلق والوجود، ويبني كل منهما حضوره في عمق امتداد حركة الآخر:

مسرعا يهبط
حتى ناسيا ما يفرق الليل عن الصبح
ولكن البيوت
وحدها تمنحه من نورها الضد
الذي يجعله ليلا...
لتلتم البيوت
في لآليها
وتحيا إذ تموت (27)

فالليل يهبط مسرعا ليرخي ظلاله على العالم متجاهلا قسماته ومعالمه التي تفصله عن الصبح وما يحمله من تاريخ ودلالات، ولن يوقظ فيه بذرة الحياة غير النور نقيضه الذي يغمر البيوتات ويسكن أعماقها ويرسم طريقها في لجته، وهو ما يجعل الليل يستعيد ذاته، ويعانق كينونته انطلاقا منه، انه مخلوق النور ومنه يقبس صيغة الوجود، وتمتد دوامة الصراع أو الجدل والتجاذب لمداها حيث تحيا البيوت في لألأها بينما خيوط الظلام تموت، ويذهب هبوط الليل سدى، ويبدو أن صدى القصيدة يستعيد لوحة الصراع الذي تنبني عليها الرؤية الخالدة التي تفسر العالم من مبدأ الصراع الأزلي بين الظلمة والنور، والخير الشر وانتصار النور-الخير باستمرار.

ضمن تحولات هذه البنية الجدلية يعانق النور العتمة في صيغ إيحائية تجريدية أحيانا، تتذبذب حركتها بين الثبات والتحول، والانكفاء والانتشار، وتتجاوز فاعلية الذات الداخلية والعالم الموضوعي الذي يستقي منه الشاعر مواده. وفي قصيدة "النور" (28) يبرز هذا المنحى بصورة أكثر جذرية وأكثر تجسيدا لتلك الجدلية التي تؤسس العلاقات التوتر-التوحد بين النور وضده. والقصيدة تتشابك فيها صور ومشاهد متناقضة وحافلة بالتوتر والاضطراب والتنوع كذلك تسمح للصور أن تتكثف وتنتشر متكئة على مجرى شساعتها، ومن ثم تتخذ طبيعة تراكمية تحاول في مستوياتها ملامسة وجود النور، وتعقب خطواته من خلال "الفنار الأعمى" وهو الرمز الذي يجسد حقيقة المزاوجة بين الضدين وغمس حقيقة النور في عمق نقيضه الظلمة أو العتمة. تتبدى الصورة الأولى في محاولة فائقة ترصد واقع قمة جبال عدن حيث تنام الأحجار البركانية وتئن من حر السواد، والبحر يتطاير رذاذا تذروه الرياح مكشوفا، مغمورا بتاريخ وذكريات وخرائط عريقة غارقة في متاهات النسيان منذ قرون بعيدة، وهي خيوط مشاهد تحاصر وجود الفنار وترسم تكوينا ته، وواضح أن هذه المزاوجة بين النور والعمى (العتمة) يهيئ نقطة وصل خفية يلتقي فيها الضدان ويصبحان شيئا واحدا مشحونا بالغموض واللاتحديد. وعبر مستويات القصيدة وحركاتها الموالية يظل هذا المنحي ثابتا، حيث تتأسس في مجموعها على التزاوج بينها من خلال مظهرين آخرين أو عنصرين هما : الصبح والليل، وهو ما يرسخ واقع الجدل الذي يغلف جوهر حركية القصيدة، ويحكم حقيقتها، ويمكن أن تكون اللوحة الأخيرة من القصيدة أكثر صدقا في نقل هذا البعد:

في الليل كذلك
يتململ بحار في قاع البحر

ويحمل فانوسا أو قده منذ قرون
ويدور مع المرقى المتعرج
حجرا
حجرا
حتى يبلغ قمته
حتى يوقد من سر الليل فنارا أعمى (29)

فالصعود أو الخروج من عمق أو ظلمة البحر، وهو ما يحيل إلى رحم العتمة، والتعلق بالفانوس رمز النور والدوران مع المرقى المتعرج، هو صعود آخر مواز نحو الأعالي حتى إيقاد الفنار الأعمى من عمق سر الليل، وهو صعود يقود خط الجدلية للأمام ويملأ عناصرها ومداها بالحركة، ويبني دلالتها الكثيفة القريبة من حافات الغموض أو الشساعة والتأويل المتنوع.

من المعادلات التي تتمم دور رمزية النور في امتداداتها المتباينة، لاحتواء حركة الدلالة ومنحنياتها، الضوء. ويظهر هذا العنصر في البدايات وجها لمترع رومانسي يحقق جماليته كرمز يوجه الصياغة الجمالية للطبيعة أو الحبيبة أو الأرض أو الأفق الرحب الذي يحاصر الشاعر ويثير فيه أحاسيس موصولة إلى صورة مركزية تقتات من شذارات الكون بقدر ما تتنوع وتتفاوت معالمها، ويوظف في مساحات منه جزءًا من مشاهد تنفذ إلى حركة الكائنات والأشياء. وتموه عناصرها وللضوء دائما متقاربة تجعل موقعه الخاص وهو ما يمنح الدلالة طلاوتها والوقائع نضارتها وإشعاعها. وكل صورة-لوحة لامناص من أن يربض في أطرافها خيط أو سيل من الضوء يسند وجودها ويوجه تفاعلاتها...

على كل فإن الرموز النورانية بكل ظهوراتها في شعر سعدي يوسف، تتأرجح أو تنتقل بين دلالات متشابكة، متقاربة، تلتقي في الغالب عند مستويين: أولهما يتصل ببعض أبعادها "الباطنية"، التي تحيل إلى الأحاسيس الوجدانية التي تنطق بحمولاتها على وجه من الوجوه، بما يمكن أن تحويه هذه الحمولات من إرهاصات لمعان قريبة أو معادلة، وموازية تتولد عبر تمثلات متباينة لها أصولها الحضارية والثقافية والتاريخية التي توجهها، أو تنسج بعضا من مدلولاتها المترامية، وهكذا يصبح النور، أو الفجر، أو الصباح، أو الشمس، أو ضوء القمر، رموزا ناطقة تحيل في ما تحيل إليه، إلى الفرح والبهجة والفتوة، والشباب الدائم، والحب والشوق والحنين... أما الثاني فيتعلق بفضاءات التحققات" الخارجية" التي تتحول عبرها إلى رمز أو"فعل" يتكيء على إيحاءات مختلفة تتكتل معالمها في الغالب كمظهر أو مؤشر للحياة المتجددة، والبعث، والاكتمال، والأمل القابع في كل كائن، وما قد يتولد من دلالات موازية

لها، فتكون النار اعتبارا لهذا البعد رمزا للغضب، والثورة، والثأر والانتقام، والشمس والقمر والنور والصباح والفجر رموزا للانتصار والغد الوليد والتبشير بمقدم أزمنة الكمال والصفاء والأمان والدعة...

هوامش

- غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي ترجمة نهاد خياطة دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى 1984 ص 11

2- غاستون باشلار، المرجع نفسه ص 53

3- لسان العرب، (مادة : نور)

4- غاستون باشلار، المرجع السابق ص 11

5- انظر بهذا الخصوص Jeanchvalier-Alain Gheerbrant : Dictionnairedes SYMBOLES.éd R Lafont , Paris 1997
وكذلك معجم الرموز إعداد خليل أحمد خليل دار الفكر اللبناني بيروت الطبعة الأولى 1995

6- غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي مرجع سابق ص 11

7- فصيدة "أغنية ليست هادئة" أغنيات ليست للآخرين الديوان، المجلد الأول ص 552

قصيدة أربع أغنيات إلى صوفيا"51 قصيدة الديوان المجلد الأول ص 8488 -

9- قصيدة "الوجوه والأقنعة" بعيدا عن السماء الأولي ، الديوان ، المجلد الأول ص 363

10- المصدر نفسه القصيدة نفسها، ص 363

قصيدة "الخيط" (51 قصيدة) الديوان المجلد الأول ص 11505 -

12- قصيدة "لمسات" (النجم والرماد) الديوان ، المجلد الأول ص 438

13- قصيدة "تأملات عند أسوار عكا" (بعيدا عن السماء الأولى) المصدر نفسه ص 334

14- قصيدة "مديح إلى مؤرخ مغربي (الليالي كلها) المصدر نفسه، ص 94

15- غاستون باشلار : النار في التحليل النفسي. مرجع سابق ص 49

16- قصيدة "الرماة" قصائد أقل صمتا : الديوان المجلد الثاني ص 36

17- قصيدة "الموجة" قصائد باريس ص 93

18- قصيدة اعلان سياسي عن حاج عمران" (حذ وردة الثلج) الديوان المجلد الثاني ص 334

19- قصيدة إلى "رائد فضاء.." نهايات الشمال الافريقي الديوان المجلد الأول ص 302

20-قصيدة "يوميات السفية جروزيا" (51 قصيدة) المصدر نفسه ص 490

21-قصيدة "دعوة" أغنيات ليست للآخرين المصدر نفسه ص 570

22- قصيدة "أغنية جليلة" المصدر نفسه ص 568

23- قصيدة "إلى فريتز شولتر" (51قصيدة) المصدر نفسه ص 486

24- قصيدة "إلى زميل موقوف" النجم والأمان المصدر نفسه ص 440

25- مجاز وسبعة أبواب" محاولات ص 83

26- الليل جنة المنسيات ص 50

27- المصدر نفسه ص 50

28- المصدر نفسه ص 15

29- المصدر نفسه